

اليوتوبيا والمواطنة توماس مور نموذجاً

شريف الدين بن دويه¹

مدخل بيوغرافي:

ولد السير توماس مور في لندن في السادس أو السابع من فبراير 1478.. كان أبوه جون مور قاضياً في المحكمة العليا، ودخل جامعة أكسفورد، وهو في الرابعة عشر، حيث أتقن اللاتينية.. ثم درس القانون في لندن وتوطدت بينه وبين ارازمس (Érasme) عالم الإنسانيات الشهير الذي زار إنجلترا، حيث ألقى محاضرات في لندن عن كتاب أوغسطين (مدينة الله)، وربما كانت البذور الأولى لما أودعه بعد ذلك من أفكار في كتابه "يوتوبيا"²

وكان محامياً بارزاً، وعضواً في نقابة المحامين بلندن، وأستاذ حقوق، وعضو برلمان، وسفير شرقه الملك هنري الثامن بأن أغدق عليه، غصبا عنه تقريباً، أعلى حظوة، حين جعله، في عام 1529، رئيساً لقضاة إنجلترا، وذلك قبل أن ينتهي به الأمر لأن يقطع رأسه في عام 1535، كما عرف بإخلاصه وتقواه، والتزامه بالقيم الأخلاقية، ويذكر التاريخ أنه نجح في كبح المطالب المالية التي طالب بها الملك هنري السابع عندما كان عضواً في البرلمان الانجليزي، رغم معرفته اليقينية بسخط الملك عليه مما جعله يفكر في الرحيل عن إنجلترا، وما يؤكد أخلاقياته القبول أو الرضا بالقتل، وتضحيته بنفسه من أجل مبادئه التي يؤمن بها، وهي اعتقاده بعدم شرعية طلاق الملك هنري الثامن³، فأصبح شهيداً في سبيل إيمانه الكاثوليكي، ولأنه أعلن معارضته للانشقاق الانجليكاني، واعتبر من بين الأبرار بعد عدة قرون، على يد البابا بيو الحادي عشر، تحت اسم القديس توماس مور.⁴ فهو إلى اليوم نموذج للاستقامة، ومثال يحتذى به، وحضوره

¹ أستاذ مساعد شعبة الفلسفة جامعة سعيدة

² عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة الجزء الثاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة 1

1984 ص: 483

³ كاترين أراغون Catherine of Aragon هي الزوجة التي كاب الملك يريد تطليقها، لأنه كان يرغب في الزواج من أن ماري بولين Mary Boleyn

⁴ جان جاك شوفالبييه، المرجع نفسه، ص: 249

لا يمكن فهمه إلا من خلال معرفة السياق التاريخي، والسياسي لشخصيته.¹ فهو على حد تعبير Keith Watson صوت الضمير الأول للثورة، والتغيير في إنجلترا، فهو من الشخصيات الثلاث التي تعبّر عن النهضة الانجليزية أو عصر النهضة في إنجلترا على حد تعبيره أيضا وهم إيرازموس Érasme 1536/1466 وجون كولي Colet 1519/1467

فالقاعدة الثورية التي أسست لسلوك توماس مور، وأهله لهذا الترويج الكاثوليكي والإيديولوجي، هي الفكر المستنير الذي كان مشبعا به، فعصر النهضة في إنجلترا كما يقول راسل: "مختلفا غاية الاختلاف وفي طرق كثيرة عن عصر النهضة في إيطاليا، فلم يكن فوضويا أو لا أخلاقيا، بل اقترن على العكس بالتقوى والفضيلة العامة، كان مهتما اهتماما كبيرا بتطبيق معايير العلم على الإنجيل"²

وتوماس مور نموذج المواطن المخلص، والموالي للوطن، وللمبادئ الأخلاقية دون موارد أو تملق لأحد، فرفض مور دعوة الملك هنري الثامن لزفافه على (آن بولين) بعد إعلان مور لعدم شرعية زواج الملك من آن بولين، هو إصرار وقمة في التضحية من أجل المبادئ، فلو فرضنا جدلا عدم كتابة مور لكتاب (يوتوبيا) لكان لواقعة استشهاده تعبيرا وتجسيدا لليوتوبيا في الواقع، إذ لم يكن يملك القابلية للفساد وهو في الوظيفة كما يقول برتراند راسل عنه، ومن بين مواقفه المشرفة والتي كانت تمثل الدوافع الخفية لإعدامه هي رفضه (قانون السيادة Act of Supremacy الذي سنه الملك في 1534 والذي يُنصّ على ترأس الملك لا البابا رئيسا لكنيسة إنجلترا..

ونعتقد أن الواقع المعاصر يكفي لفهم وتفسير معنى رفض قوانين الحاكم، أمّا المؤلفات الكتب خلفها، فيكاد (مور) يذكر فقط بسبب يوتوبيا، الذي نشر في لوفن باللاتينية سنة 1516 والذي حاول فيه التعبير عن بعض النقاط أهمها مناقشة الأوضاع المزرية التي تسود إنجلترا، وأوربا آنذاك وانتقادها بصورة لاذعة، والكشف عن المساوئ الاجتماعية في نظم الحكم السائدة، وفي هذه النقطة نجد وضعية مور هي وضعية عالم الاجتماع الذي يسعى إلى دراسة الظاهرة الاجتماعية

¹ Keith Watson, «Perspectives (revue trimestrielle d'éducatons comparée) paris, UNESCO) vol 24, n1-2, 1994, p189

² برتراند راسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة: محمد فتحي الشنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1977 ص: 36 (د. ط)

من خلال وصفها وتحديدها، وثانيها محاولة مور وضع مفاهيمه وفلسفته الأخلاقية التي يؤمن بها في مدينة مثالية، والتعبير عن مشروعه السياسي في صورة رمزية، وهي قدرة أخرى تميز هذه الشخصية وسنحاول التعليق على الرمزية التي أخذت قسطاً لا بأس به في فلسفة التأويل، إذ يتقصد هي شخصية الفيلسوف الذي يتخذ من الرمز أداة للتعبير عن فلسفته ونظرته للكون والإنسان، فقد اتبع أسلوب المقابلة أو المقارنة بين وضعيتين أو حالتين اجتماعيتين: ما هو كائن، وما ينبغي أن يكون، فالوضعيات القائمة هي حالة الانحراف عن المبادئ، وغياب العدالة الاجتماعية، أما الوضعيات المطلوبة، فهي البحث عن حياة أفضل فيوتوبيا مور ليست من جنس يوتوبيات الهروب، بل هي من اليوتوبيات البنائية، ومصير مور يحاكي نهاية الفيلسوف سقراط، وعلاقته مع الملوك تشبه إلى حد كبير علاقة أفلاطون مع الملك ديون، وإن كان من حظ أفلاطون أن أفندي من قبل تلميذ وقى، فموته تجسيد لرغبة البناء والإصلاح الثوري فقد "حلل توماس مور عيوب الاستبداد الذي أصبح ضحيته فيما بعد، ولكنه مات شهيد الإيمان الكاثوليكي، وأفكاره السياسيّة، بالرغم من جرأتها، لم يخف أهداء، بسبب الشكل الذي عرضها فيه"¹

وبما أن الغرض من كتابة الكتاب هو طرح مشروع سياسي، والكتاب يناقش مسألتين، الأولى شخصية، تتعلق بتردده في الالتحاق بخدمة الملك، أو بصيغة أعم، هل ينبغي على الفلاسفة مساعدة الملوك بنصائحهم، والثانية تتعلق بإصلاح نظام العقوبات...²

ومادامت العلاقة المثلى بين الحاكم والمحكوم تتجسد في الولاء القائم على المصلحة العامة، والمشاركة في بناء الدولة ليس من باب شخصي أو منفعة ضيقة، فإن كتاب يوتوبيا هو مجال استقى منه السياسيون الكثير من قيم المواطنة وسنحاول في هذه الدراسة الكشف عن بعض القيم الأخلاقية، والسياسيّة المؤسسة لمبدأ المواطنة.. وفي بداية البداية سنحاول وضع تلخيص لكتاب يوتوبيا. الاختلاف سمة تعبر عن الروح الفلسفيّة بكل خصوصياتها، فهي دالة لروح النقد، وللرغبة في سبر كنه المعاني، والعبارات التي يرمي

¹ جان توشار، تاريخ الفكر السياسي، ترجمة علي مقلد، بيروت ص: 210

² ماريا لويزا برنيري، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ترجمة عطيات أبو السعود، سلسلة عالم المعرفة، العدد 225 الكويت 1997 ص: 90

إليها الفيلسوف أو الأديب، ولكن هذا الاختلاف أخذ مسارا آخر في التعاطي مع كتاب يوتوبيا، فهو كتاب يخفي الكثير في حكاية رحلة، من خلال التعبير الجديد للعنوان نفسه، طريق الغموض اليوتوبيا، المكان غير الموجود في أية جهة، وهي الدلالة التي تجملها الكلمة، كما نجدها تقترب من كلمة الايدوتوبيا Udetopia، المكان غير الموجود في أي زمن (لا يملك حاضرا ولا ماض ولا مستقبل) وتلتقي أيضا كلمة يوتوبيا مع كلمة الأوتوبيا Eutopia، مكان السعادة حيث كل شيء جيد، فهناك تعددية في المعنى، وتعددية في الإيحاءات، تعددية أشكال.

كما لو أنه عبر اللعبة التي تدخلها هذه التعددية تتوصل اليوتوبيا لاحتلال وحدتها، كما يتوصل المؤلف لحفظ حريته، وقد انشغلت بالعالم البديل الممكن بتغيير الموجودات، والأشياء لتحقيق العدل والمساواة والحرية، لكنها في جوهرها لم تبتعد عن مرجعين الأول مدن الإنسان الفاضلة نقيضا لقسوة المدن القائمة، وغياب العدل فيها كما في الجمهورية لأفلاطون، والثاني الواقع نفسه الذي يجري تعديله وإصلاحه، ويقدم لنا توماس مور أمثلة على ذلك، فلما كان الحصول على الذهب حمى وسحرا جاذبا لمغامرات معاصريه، ومؤامراتهم، فإن هذا المطلوب يصبح حلية للعبيد والأطفال، كما نجده يتخيل الجزيرة بلا نقود، ولا محامين، لتوخي العدل الطبيعي، والزهد بالمال لتحقيق التوازن الاجتماعي، وهو ما تؤكد الدراسات الحديثة التي تفرق بين الفكر اليوتوبي وعلوم المستقبل القائمة على التخطيط، لأن اليوتوبيين معنيون بخلق أفكار، وتصورات للانسجام الاجتماعي صدورا عن الخيال الأدبي والتصور الفلسفي أما كتاب يوتوبيا فيتألف من كتابين وضعا في أوقات مختلفة، ولا يعرف أيهما كتب قبل الآخر، ويتضمن الأول وصفا تفصيليا للجزيرة، وإن كان موقعها لا يزال غامضا، فهي تتألف من أربعة وخمسين مدينة، متساوية في عدد السكان والمنشآت.. يتحدث أهلها لغة واحدة ولهم قوانين وعادات واحدة ويمارسون مهنة الزراعة، ويقوم النظام المثالي للجزيرة على أساس من العدالة التي لا تتحقق إلا عن طريق اشتراكية الحياة وإلغاء الملكية الخاصة.

أما الثاني فيحتوي على وصف تفصيلي للحياة في الجزيرة، وهو ينقسم الى عدة أقسام؛ القسم الأول وصف جغرافي للجزيرة ومخططها العمراني، والحياة اليومية للسكان، أما القسم الثاني، فيتناول فيه نظام

الحكم، واختيار الرؤساء، ونظام العمل والحياة الاجتماعية، أما القسم الثالث فيعالج الأساس الفلسفي للحياة في الجزيرة، والأخلاقيات، ونظام الزواج والقوانين العامة، ثم الجزء الذي يتناول علاقة جزيرة يوتوبيا بجيرانها وأمور الحرب، والقسم الأخير تعرض لنظام الأديان في يوتوبيا، وقبل التعرض للمواطنة في يوتوبيا توماس مور يجدر بنا التعرض لدلالة الدولة عند مور، ونلاحظها في الفقرة الأولى من الكتاب، والتي يقول فيها: "نشأ خلاف أخيرا بين الملك الذي لا يقهر قط، ملك إنجلترا، هنري الثامن، الذي يتميز بجميع صفات الملك المثالي، وبين سمو أمير كاستيل تشارلز، الجبار السامي، وذلك حول بعض الأمور ذات الأهمية والوزن"¹

والاستهلال بعبارة معينة في فقه اللغة، وفي فلسفة التأويل، يفيد ويحمل العديد من الدلالات، فالمقدمة دوما تحدد الدواعي والأسباب الكامنة وراء الكتابة، ويضع الباحث فيها أيضا خطة المعالجة ؛ فالخلاف والتصادم بين الملك هنري الثامن، والأمير علة ومنطلق الكتابة، فهي تشير الى توصيف للدولة حسب رؤية توماس مور، فالخلاف والتنازع بين العائلة الملكية هو صورة وعنوان لهذه الدولة الملكية وعنوانها، فهي اذن رعاية مصالح الطبقة الحاكمة، والمسائل التافهة التي يشير إليها هي علة هذه المنازعات، فقله (وذلك حول بعض الأمور ذات الأهمية والوزن)، فالإشارة التي يضعها مور لنوعية الخلافات القائمة بين الملك والأمير تفيد شكلية وسطحية هذه الأمور، كما أن الكلمات الموظفة تحمل نوعا من السخرية الخفية، فالملك هنري الثامن ملك لا يقهر ويتميز بجميع صفات الملك المثالي، فإذا سلمنا بأنه لا يقهر، فكيف يفشل في فضّ الخلاف القائم بينه وبين الأمير، وكيف نجتمع بين القهر (العنف) والمثالية، فالجمع بين نقيضين يحيل إلى التفكير والتأمل، والبحث فيما وراء العبارة، ونفس الوصف نجده للأمير (الجبار السامي)، فهذه العبارات توحى بتناقض الدولة وتعارضها مع منطق العقل والأخلاق، فالدولة ظاهرة سياسية تحتاج إلى إصلاح..

¹ توماس مور، يوتوبيا، ترجمة: إنجيل بطرس سمعان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ص: 59 (د. ط. ت)

مفهوم المواطنة

يبدو لنا أن المواطنة هي المطلب الخفي في كتاب يوتوبيا، والمشروع السياسي المثالي الذي عنون به كتابه، فعنوان الكتاب يتألف من ثلاث جمل: الأولى السياسة المثلى للدولة، ووصف يوتوبيا، الثانية: حديث روفائيل هيتلوداي، الثالثة كما يرويها توماس مور مواطن، ورئيس أمن المدينة الشهيرة لندن، فالجملة الأولى تحدّد الغاية الأخلاقية من الدولة، فهي أداة ووسيلة لتحقيق وتجسيد القيم الأخلاقية، فالمثالي هو (المنسوب الى المثال، ويطلق على صورة الشيء الكاملة، أو على ما يحقق هذه الصورة تحقيقاً تاماً).¹

أما الجملة الثانية فهي جملة تؤدي دور الوسيط بين المطلب والطالب، (ورافاييل هيتلوداي ترادف باليونانية ماهر في الهذر² والعبارة تبعاً للترجمة: (حديث رافاييل هيتلوداي) فهي ترمز للأسلوب المستخدم في التعبير عن الغاية وهو الحكاية في صيغة الحوار أولاً، وبصيغة السرد في الكتاب الثاني، فالحديث هو الخطاب والاسم كما يقول ول ديورانت معناه المهارة، والقدرة على الصناعة اللفظية، أما الجملة الثالثة _ كما يرويها توماس مور المواطن.

فتقديم مور لصفة واسم المواطن، قبل رئيس أمن دائرة لندن يفيد البعد المواطنني الذي كان يملكه ميور، فهو فعلاً نموذج المواطن الصالح، وبالتالي فإن القيم التي يقيم عليها المواطنة هي قيم المجتمع اليوتوبي الذي عاصمته امورات Amaurate، فالمواطن الفاضل لا يملك إلا أن يتصور مجتمع أفضل ومثالي عبر الكلام، وإذا كانت المواطنة الحقيقية تتجسد في المشاركة السياسية، والحق في صنع القرار وعزل الحاكم إذا انحرف عن المسار المنوط به من قبل النخبين، فإن هذه الدلالة واضحة وبيّنة في كتاب يوتوبيا لتوماس مور في عدة مواطن من الكتاب، ومنها: "و يشغل الحاكم منصبه طوال الحياة، ما لم يعزل إن اتهم بالميل للطغيان، أما الرؤساء الأول فينتخبون سنوا ولكنهم لا يستبدلون بغيرهم إلا لسبب قوي...."³

¹ جميل صليبا، المعجم الفلسفي الجزء الثاني، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1982 ص: 336 (د. ط)
² ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الرابع، المجلد السادس، ترجمة، عبد الحميد يونس، دار الجيل، بيروت، ص: 106 (د. ط ت)
³ توماس مور، المصدر نفسه، ص: 131

الحاكم في مدينة (مور) يملك القدرة والصلاحية في البقاء على السلطة مدى الحياة، فمدة الحكم غير محدّدة دستورياً، نظراً لعدم أهميتها، فليس المهم أن يبقى الحاكم مدة أطول أو مدة أقصر، المهم الالتزام بالقيم الأخلاقية، وتجسيدها بين أفراد الشعب، والسعي إلى الرقي والارتقاء.

والشعب يملك عبر ممثليه الصلاحية في عزل الحاكم، وهذه القيمة تتصدّر السلم القيمي لمبدأ المواطنة، فالطغيان أو الاستبداد كاف لعزله واستبداله، واللطف في حديث مور أن الميل إلى الاستبداد كاف للعزل، ولا ينتظر الشعب ممارسة الطغيان من قبل الحاكم، كذلك اتهام مواطن من الجزيرة للحاكم أيضاً كاف لعزله، وأعتقد أن مضمون هذه العبارة كاف للتدليل على تضمن الكتاب لفكرة، وقيمة المواطنة، ومن بين القيم السياسية، والأخلاقية التي تضمنها الكتاب أيضاً، المشاركة في القرار، والتسيير عبر الانتخاب، والنص التالي يكشف عن هذه القيمة: " تختار كل ثلاثين أسرة سنوياً ممثلاً أو رئيساً لها، كان يدعى بلغتهم القديمة سيفوجرانت، أما في اللغة الحديثة فيدعى فيلارك، ويقام على كل عشرة من الفيلارك والأسر التابعة لهم شخص كان يدعى قديماً ترانيبور، أما الآن فيسمى بروتوفيلارك أو الرئيس الأول، وتنتخب الهيئة المؤلفة من الرؤساء أو السيفوجرانت، ويبلغ عددها مائتي شخص، بعد أن تقسم على اختيار الرجل الذي تراه أفضل المرشحين وأكثرهم نفعاً، بطريق الاقتراع السري، حاكماً، على أن يكون أحد أربعة يرشحهم الشعب، بحيث يختار واحد من كل من الأحياء الأربعة للمدينة ليرشح للمجلس).

ويبدو أن المشاركة للمواطنين في المسائل السياسية تجري سنوياً، ولتحقيق العدالة بين سائر المواطنين تختار كل ثلاثين أسرة ممثلاً عنها، حتى يساهم الجميع في القرار السياسي عبر الانتخاب والاختيار القائم على العدالة والأخلاقية، وآلية الانتخاب أو التمثيل تأخذ ترتيبات معقدة حتى تصل إلى الحاكم الأول، والمعيار الذي يقوم عليه اختيار الممثلين هو الفضيلة (بعد أن تقسم على اختيار الرجل الذي تراه أفضل المرشحين وأكثرهم نفعاً)، فالأخلاق والالتزام بالقيم هو عنوان الممارسة السياسية، والبت في قضايا عامة دون علم الممثلين جريمة لا تغتفر، (أمّا مناقشة الأمور المتصلة بالصالح العام خارج مجلس الشعب فيعدّ جريمة من الدرجة الأولى)، فالسلطة والسيادة ليست ملكاً للحاكم

بل ملكا للشعب، وهي ما سيصطلح عليه لاحقا جان جاك روسو الإرادة العامة التي هي روح المواطنة.

الفضاء العام للمواطنين هو فضاء أخلاقي، وطبيعة العلاقات الاجتماعية بينهم مؤسسة على البنية التركيبية لمجتمعهم، فالسلوك الأخلاقي المميز لهم طبيعي وتلقائي، وهذا يؤكد مور بقوله: (فإذا نشأ خلاف بين فردين من أفراد الشعب، وقلما يحدث ذلك، فإنهم يسوونه بدون إبطاء)¹، فالتصادم نادر الحدوث.

نلاحظ أن طبيعة السلطة في الأسرة اليوتوبية هي أبوية، فالقرار بيد الآباء الأكبر سناً، فاحتفاظ الأب بسلطة القرار والتسيير يحافظ على بقاء وتماسك الأسرة، أما انقسام السلطة في البيت هو ضعف السيادة، يقول مور: (لما كانت المدينة تتكون من أسر، فالأسرة تتكون من أولئك الذين تربط بينهم رابطة الدم، فالفتيات، عندما تكتمل أنوثتهن ويتزوجن، يذهبن إلى بيوت أزواجهن أما الأبناء الذكور، ثم الأحفاد، فيبقون في الأسرة ويخضعون لأبائهم سناً، إلا إذا شاخ وخرف، وفي هذه الحالة يخلفه من يليه سناً)²، فالخضوع لسلطة الأب الأكبر لا تعود إلى عامل الزمن بل لعامل الحكمة والخبرة في التسيير والإدارة، والاستثناء الذي يورده توماس مور يؤكد حضور الحكمة والأخلاق في السلطة الاجتماعية، وغياها يستلزم الإقالة على مستوى السلطة، والتغيير على مستوى الحياة الأسرية.

المواطنة والمساواة :

المساواة في المجتمع اليوتوبي سمة عامة وبديهية لا تحتاج إلى برهان، بل العكس هو الذي يحتاج إلى البرهنة، فهم يجهلون اللامساواة، والخلاف والبطالة الناتج عن الملكية الفردية والحياة من أجل الذات، والتي تجعل من الغير أداة يصل بها إلى تحقيق السعادة الفردية، فقيم الأنانية هي عنوان المجتمعات الغير يوتوبية بشكل عام، وأسلوب المقابلة هو نوع من الخطاب المشقر الذي يكتب به توماس مور؛ وهذه الدلالة واضحة في كتاب (يوتوبيا) والنص التالي يتعامل فيه مور مع طبقة النبلاء بأسلوب نقدي لاذع يقول فيه: — مخاطبا الكاردينال — (إن أغنامكم التي اعتادت أن تكون أليفة معتدلة الطعام.. أصبحت شرهة مفترسة، تلتهم الرجال أنفسهم وتدمر حقولا ومنازل

¹ المرجع نفسه، ص: 131

² المرجع نفسه، ص: 141

ومدنا بأكملها وتلتهم سكانها، ففي جميع تلك الأجزاء من المملكة التي تنتج ارفع أنواع الصوف، وأغلاها، لا يكتفي نبلاؤكم بالمداخل والأرباح السنوية، التي كانت تدرها عليهم أراضي آبائهم وأجدادهم.... فلا يتركون أرضا للزراعة، ويقيمون الأسوار حول كل شير من الأرض ويحولونها إلى مراعى.... ولا يتركون مكانا سوى الكنيسة التي يحولونها إلى حظيرة للأغنام)¹، فالنبلاء أو الأشراف طبقة اجتماعية انتهازية، وملكيته في الأصل غير شرعية، كونها هؤلاء بدماء العمال والفقراء، فبعد أن شبههم مور في أول العبارة بأنهم أغنام الملك، أصبحوا فيما بعد يحولون المواطنين الآخرين إلى أغنام، فالكنيسة هي الملجأ الوحيد الذي يتبقى للفقراء والمساكين فالقضاء على الملكية الفردية هو القاعدة نحو المساواة وبالتالي نحو العدالة وعلى حد تعبير جان توشار المساواة الايتوبية، تجعل الجميع يعمل من أجل الجميع، ولا يمتلك أحدا شيئا خاصا به، إن الجماعة تؤمن لكل الرخاء، فاليد العاملة متوفرة والإنتاج الزراعي والحرفي منظم جيدا والراحة، يمكن استخدامها لتنوير العقل.

ومن خصوصيات هذه المساواة الانضباط حيث ساعات العمل محددة والطعام أيضا مشترك، وفيها يخضع كل مواطن بدون إكراه لأن المجموعة تقدم له أقصى الرفاهية، يقول توشار: (إن القوانين، بغياب النزاعات الناشئة عن الملكية الخاصة، هي بسيطة وقليلة العدد، ودور الدولة يقتصر تقريبا، فقط على إدارة الأمور، وعلى توجيه الاقتصاد.)²

فالمساواة بين المواطنين قيمة من قيم المواطنة، فالمواطنون سواء أمام القانون لا فضل لأحد على أحد، فكل القيم الأخلاقية والجميلة التي تتضمنها المواطنة، تجد جذورها وبذورها في كتاب اليوتوبيا.

المواطنة والتسامح :

من القيم الأخلاقية التي تميّز مبدأ المواطنة في المجتمع المدني الحديث والمعاصر، قيمة التسامح والتعايش بين الأديان والذي (يشير إلى الامتناع عن التدخل في أعمال الأشخاص الآخرين وفي آرائهم، بينما تبدو لنا هذه الآراء أو الأعمال كريهة أو منفرة أو تستحق الشجب

¹ المرجع نفسه، ص: 79

² جان توشار، المرجع نفسه، ص: 211

أخلاقيا)¹. فالتسامح أهم القيم التي حظيت بالاهتمام الواسع في الدراسات الفكرية، وعلى صعيد المراكز الإستراتيجية، والدراسات المستقبلية، لأن حضور العنف والإرهاب، يستلزم غياب التسامح والتعايش، وكتاب يوتوبيا، يسعى إلى تكريس المنظومة الأخلاقية والسعي نحو تحقيقها في الواقع، فتعدد العقائد في المجتمع اليوتوبي مسألة عادية ومألوفة، وغير هذا هو الغير مألوف، وما يميز النسبة العظمى من أفراد المجتمع هي التوحيد، يقول مور: "... فإن جميع ما عداهم من اليوتوبيين، بالرغم من اختلاف معتقداتهم، يتفقون معهم في هذا الشأن، وهو الإيمان بوجود كائن أعلى واحد، خالق الكون كله، ومدبره بحكمته، ويدعونه جميعا بلغة بلادهم (ميثرا) إلا أن نظرتهم تختلف من شخص لآخر..."²

فالاختلاف في العقائد لا يطل الأصول العقيدية بل الفروع فقط، فالنظرة هي أصل التفاوت في العقيدة، فكل معتقد يصبح صحيحا، ويجب احترامه، ولا يجوز التطاول على معتقدات الغير حتى ولو كانت بالنسبة إلينا مثيرة للرفض أو المقت، فاحترام المواطنين لا يقوم فقط على تقدير الشخص كفرد، بل التقدير يؤسس على الكرامة التي تشمل كل ما يرتبط بها من أفكار ورؤى، وملكية. ويشير توماس مور إلى أن التسامح بين الأديان لا ينبغي أن يكون متعلقا بالممارسة الفردية أو الجماعية، فالبناء المؤسسي ضروري لحماية معتقدات المواطنين، والنص الذي يؤكد هذه الالتفاتة أو الحكمة المورية (نسبة إلى مور) هو: (فقد بلغ سمع الملك يوتوبوس، قبل وصوله إلى يوتوبيا، أن السكان لا يكفون عن الخصام فيما بينهم. .. لذا قرّر منذ البداية، بعد أن أحرز النصر، أن يكفل القانون لكل شخص حرية اعتناق الدين الذي يريده، ويسمح له بدعوة الآخرين إلى دينه، بشرط أن يؤيد الدعوة بالمنطق وبهدوء ووداعة، وألا يستخدم العنف، ويمنع عن السب، فإذا ما عبّر عن آرائه بعنف وحماس متطرف، عوقب بالنفي أو بأن يصبح عبدا).³ وبيان النص صريح في دلالة التسامح، والدعوى إلى ضبط القيمة في شكل قاعدة قانونية مثل قيمة العدالة، فلا وجود للعدل في غياب القانون أو السلطة.

¹ مونيكا كانتو سبيريير، الفلسفة الأخلاقية، ترجمة جورج زيناتي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، الطبعة الأولى 2008 ص: 103

² توماس مور، المصدر نفسه، ص: 208

³ المصدر نفسه، ص: 211

التربية المواطنة: تربية وتكوين المواطن في جزيرة اليوتوبيا مسألة ضرورية في بناء المجتمع عموماً، فالتنشئة الأخلاقية ضرورية، إضافة إلى التكوين المعرفي والسلوكي، ومهمة التربية تتدرج ضمن السلك الكهنوتي والنص التالي يكشف عن هذه المبادئ: "والكهنة هم المكلفون بتعليم الأطفال، ويعتبرون الاهتمام بأخلاقهم وفضائلهم لا يقل أهمية عن الاهتمام بتقدمهم العلمي، ويعملون منذ البداية على ملء أذهان الأطفال، ومازوا يتسمون بالرقّة والمرونة، بالأفكار الصالحة والنافعة أيضاً للحفاظ على الدولة، فإذا ما اتخذت هذه الأفكار لها جذوراً في أذهان الأطفال، بقيت معهم طوال حياتهم وعادت بالنفع العظيم في المحافظة على حالة الدولة، فالدولة لا تنهار إلا نتيجة للردائل التي تتبع من الأفكار الخاطئة".¹

فالمهمة التربوية من مهام رجال الدين، وعلى رأس الاهتمامات التربوية هي التوعية الأخلاقية والتربية على الفضيلة، (فمعيار الشرف في المجتمع ما يؤديه الفرد من خدمات لهذا المجتمع، ولا يستند على نصيبه من الثراء أو حظه من الحسب والقوة، فالعمل الصالح سبيل إدراك السعادة والهناء).²

ومن الأوليات في فلسفة التربية العمل على بناء القاعدة المعرفية التي تؤهله للمواطنة الصالحة، وطريقة التواصل بين المعلمين والمتعلمين هي الحب والرقّة، وتجنب القسوة والعنف في العمل التربوي، ، فالتربية في الصغر كما قيل كالنقش على الحجر، فتأصل الوازع الأخلاقي والمواطنة في نفس النشء قوة للدولة.

فلسفة الجزاء في اليوتوبيا:

كتاب (يوتوبيا) يتضمن العديد من القيم والمعاني الأخلاقية، ولسنا نرغب في تشخيصها جميعاً، بل سنحاول عرض البعض منها ومن أهم الأفكار التي لفتت انتباهنا مضمون نظرية الإصلاح القانونية التي طرحت في فلسفة القانون، وبتعبير أدق نظرية الجزاء أو فلسفة العقاب التي ترفض إقامة العقاب على أساس العقاب، فالقاعدة المعتمدة في هذه النظرية هي: "ليس من الحق أن يسلب أحداً حقاً ليس هو الذي منحه"، فحق الحياة الذي يسلب بالإعدام مسألة اختلافية في القانون، فالمدرسة العقلية تدعو إلى تشديد العقاب وإقامة أقصى العقوبات على المجرم،

¹ المرجع نفسه، ص: 219

² فؤاد محمد شبل، المرجع نفسه، ص: 50

فالعنف الذي يسلط على المجرم في نظر هيجل ليس مشروعاً في حد ذاته بل هو مشروع من حيث هو تجسيد لإرادة المجرم ذاته.

والمدرسة الحديثة تنادي بإعادة تربية المجرم وتأهيله، فالمواطنة الحقيقية لا تتطلب إعدام الأشخاص، لأن المواطن وحدة أساسية في التكوين الاجتماعي، وهي ما تعرف بنظرية الإصلاح؛ وتوماس مور في كتابه يؤسس لهذه النظرية، والنص التالي يبين الدلالة: "... فإن هذه العقوبة التي تفرض على اللصوص تتعدى حدود العدالة، كما أنها ضارة بالصالح العام فهي عقوبة بالغة القسوة للسرق، ومع ذلك فليست رادعاً كافياً، كما أنه ليست هناك عقوبة يمكن التفكير فيها، كغيلة بأن تمنع من السرقة أولئك الذين يفتقرون إلى حرفة أخرى يكسبون منها عيشهم، وليس هذا هو الحال في بلدي وحدها بل في جزء كبير من العالم..¹

يصدر (مور) حكماً تقييمياً على عقوبة الإعدام يقرّر فيه اجتناب المجتمع لطريق الحق والقيم في هذه العقوبة القاسية، فعدم تناسب الجرم مع العقوبة هو عين الظلم، فهي من القسوة بحيث الفطرة تظهر عدم التناسب وتؤكد بعدها عن العدالة، فمعاقبة السرقة بالإعدام ليست شيئاً غير عادل وغير مؤثر فحسب، وإنما تؤدي كلك إلى جرائم أكبر وحبسية الحكم تعود في نظره إلى الضرر اللاحق بالجماعة عند فقدانها أحد المواطنين — وإن كان القضاء يعتبره مجرماً —، فالمواطن يملك انتماءاً معيناً لأسرة أو معيل لمجموعة من الأفراد.

"فمن المؤكد أنه ما من شخص لا يعرف كم من المضحك والضرار بالدولة أن تفرض نفس العقوبة على اللص والقاتل، إذ يرى أن اللص أنه لا يقل تعرضه للخطر إن حكم عليه بأنه لص عما إذا حكم عليه بأنه قاتل فهذه الفكرة وحدها كغيلة بأن تدفعه إلى قتل الرجل الذي كان سيكتفي بسرقة، وفضلاً أنه لن يتعرض لخطر أكبر إذا أمسك به، فإنه سيكون أكثر أمناً بالتخلص من الرجل، وأقوى أملاً في تغطية جريمته إذا لم يترك وراءه من يروي أحداثها، وهكذا بينما نحاول إرهاب اللصوص بالقسوة المتطرفة، فإننا لنغريهم على الفتك بالمواطنين الصالحين²."

¹ توماس مور، المرجع نفسه، ص: 73

² المرجع نفسه، ص: 85

كما أن هذه العقوبة غير ناجعة وفعالة في القضاء على الجريمة، فبواعث الجريمة لم تعالج من الجذور، كما أن مور لا يطرح عقوبة مناسبة ويؤكد على عدم إمكانية التفكير في وجود العقوبة، بل العقوبة يجب أن تتبع الأسباب والمسببين وليس الضحايا، فالعلل التي تدفع إلى الإجرام هي الظروف الاقتصادية والاجتماعية، فوظيفة الجماعة أو المؤسسة السياسية هي توفير فرص العمل وليس التفكير في العقاب كما أن مهمة القضاة تنحصر تقريبا في إجبار الناس على العمل¹، فالمنازعات كما ذكرنا سابقا غائبة ونادرة في المجتمع اليوتوبي، وعليه يفقد القضاة وظائفهم، ويصبحون عالة على المجتمع، أو يتقاضون أجورا بدون أن يمارسوا أعمالهم.. فالوظيفة الرئيسة هي الأمر بالعمل، لأن البطالة هي أم الجرائم.

¹ سلامة موسى، أحلام الفلاسفة، الشركة القومية للنشر والتوزيع، تونس 1961 ص: 29 (د. ط)